

## (نيسان) العراقى: التخلص من الفكر العنصرى الشوفىنى

2015-04-07 نزار حىدر

هُوَ أسوأ أشهر السنّة بالنسبة للعراقىىن، لما ىختزن فى ذاكرتهم من مآسى وآلام على مآئف الاصعدة، ولولا تزامن ذكرى سقوط الطاغىة الذلىل صدام حسىن ونظامه البولىسى الاستبداىى فى هذا الشهر (٩ نىسان ٢٠١٣) لفكرّ العراقىّون، ربما، فى ان ىمحوه من حىاتهم وذاكرتهم حتى لا تتكرر أوجاعهم وآلامهم القاسىة مع حلول ذكرىاتها كل عام.

صحىح ان (نيسان) هو شهر الكذبة المشهورة باسمه، الا انها فى العراق تحولت الى حقىقة مؤلمة وقاسىة للأسف الشدىد.

كلّ شعوب العالم تتناقل كذبته بفرحٍ ومرحٍ، الا الشعب العراقى الذى ىتناقلها بحزنٍ وأسى وألم!

ولانّ ذكرىاته قاسىة ومؤلمة جداً، لذلك فانّ تجاربها ودروسها وعبرها عظىمة جداً، وربّما لهذا السبب ىحتفظ العراقىون بها، فى محاولة منهم لاستذكار التجربة وما تعلّموا منها للحىلولة دون تكرارها.

فى هذه الحلقات من هذا المقال، سأحاول ان استذكر مع العراقىىن بعض هذه الآلام لأستخلص من كلّ واحدهٍ منها درساً، فالجىل الجدىد ربما لم ىعرف شىئاً عنها، او انه سمعَ بها ولكّنه نسىها، ومن الواضح فانّ من ىنسى التارىخ لا ىقوى على فهم الحاضر والتخطىط للمستقبل، ولذلك فلىس عبثاً ان لهواً ان ىدون القرآن الكرىم الكثر من تجارب الامم والقرون الماضىة، انّما لتتعلّم منها الدروس والعبر، فالتجارب الانسانىة ملكٌ مُشاع لكلّ البشرىة، لا ىمكن لاحدٍ ان ىحتكرها او ىحصرها فى زمانها ومكانها ابداً.

اولاً؛ فى نىسان عام ١٩٤٧ تأسّس النهج العروبى القومى العنصرى الشوفىنى، كحزبٍ (سىاسى) ىرنو بعىنه الى السلطة لىستولى عليها بأى شكلٍ من الأشكال، لىنتقل الى العراق بسرعة البرق، بهدف

تدمير الأسس الوطنية التي ظل العراقيون يحتفظون بها، على الرغم من سياسات التتريك مثلاً ومن ثم السياسات الطائفية والعنصرية وغير ذلك.

ولقد سعى هذا النهج الى تحقيق غاياته المدمرة من خلال ما يلي:

الف: التركيز على (العلمانية) السلبية وليست الإيجابية، من خلال استعدائه للدين وما يتعلق به من فكر وثقافة ومؤسسة وشعائر وكل شيء.

باء؛ ترسيخ النهج الطائفي بشكل واسع جداً، سواء من خلال السياسات العامة التي كان ينتهجها، او من خلال الثقافات الطائفية التي كانت تمتلئ بها كل وسائله الإعلامية فضلاً عن المناهج التعليمية، بمختلف مراحلها الأولية والجامعية، وكذلك على مستوى التأليف والنشر.

جيم؛ صناعة الطاغوت من خلال تكريس ظاهرة عبادة الشخصية، عندما لخص هذا التيار الدولة والسلطة والنظام وكل المؤسسات بشخصٍ اعتبره ابواقه وجوقة المطبلين والمزمّرين القائد الضرورة والرمز الأوحد.

ولقد لعبَ جيشٌ من اساتذة الجامعات المنتمين لهذا التيار الشوفيني دورٌ في تكريس ظاهرة عبادة الشخصية، من خلال تشجيع طلبة العلوم الانسانية في الجامعات العراقية على الكتابة والبحث في كل حركةٍ وسكّنةٍ تبدر من (القائد الضرورة) لينالوا بها شهاداتهم (الأكاديمية) و(العلمية) العالية وبدرجات التفوق مسبقاً!

دال؛ إضعاف قيم المواطنة والانتماء الوطني من خلال سياسات التمييز الطائفية والعنصرية التي كرّسها النظام على مختلف المستويات، فضلاً عن الحروب العنصرية التي ظلّ يشنها على هذه الشريحة من المجتمع او تلك، الغرض منها تفتيته ليسهل عليه إحكام قبضته الحديدية.

لقد ملأ هذا التيار (العروبي الشوفيني) مناهج التعليم بالقيم الشوفينية والعنصرية، ما اثار ردود فعلٍ صامتةٍ في نفوس المجتمع، عندما بدأ يشعر كل مواطنٍ ان انتماءه الوطني مُستهدف من قبل

هذا التيار، تارةً بانتمائه القومي، الكرد والترکمان وغيرهم، وتارةً بانتمائه المذهبي، الشيعة تحديداً!

هاء؛ تكريس مفهوم السلطة كمحورٍ أوحده على حساب مفاهيم الدولة التي ألغاهها هذا النهج الشوفيني بشكلٍ كاملٍ، وذلك من خلال:

١/ تسخير القوَّات المسلَّحة كأداةٍ وحيدةٍ في عملية بناء السلطة.

٢/ تصفية كلِّ مظاهر المعارضة وبشكلٍ مرعب.

٣/ بناء منظومة أمنية وظَّف فيها المواطن كجاسوسٍ ومخبر، حتى تحوَّل العراق، وبجدارةٍ، الى ما سمي بدولة المنظمة السريَّة.

٤/ حوَّل العراق الى بلد الميليشيات المتعددة والتي بسط يدها بالكامل، فكانت تحمل اسماء وعناوين متعدِّدة تنتشر في المجتمع.

٥/ تبني سياسة العدوان كمنهج ثابت في فرض أجندياته في المنطقة، من خلال شتته للحروب العبيثة ضد الجميع.

٦/ كذلك اعتماد منهجية (صناعة الأزمات) سواء في الداخل او مع الجيران والمجتمع الدولي، انتهت بالعراق الى الاحتلال والغزو وضياع سيادته واستقلاله.

الفكر العنصري الشوفيني

انَّ خطر الفكر العنصري الشوفيني يتضاعف بشكلٍ واسعٍ جداً في المجتمعات ذات التركيبة المتنوعة والمتعددة كالعراق، ولذلك جرَّ هذا الفكر على العراقيين الكثير جداً من الويلات والمعاناة.

ولقد كانت مدة أكثر من نصف قرن من الزمن، كافية لتكريس مفاهيم الشوفينية في المجتمع العراقي وللأسف الشديد، فإذا بظواهر مثل عبادة الشخصية وصناعة الطاغوت ومنهجية صناعة الأزمات ومحورية السلطة بدلاً عن الدولة والتزمت في الانتماءات الاثنية والدينية والمذهبية بل وحتى المناطقية والعشائرية ونظرية (ما ننطيهها) و (القائد الضرورة) و(الابواق، فلكل زعيم بوق من جنسه، يساويه في المقدار ويناغمه في الاتجاه) وغير ذلك، أصبحت جزء من شخصية الفرد العراقي وكيان المجتمع!.

فما هو الحل، اذن، لكنس كل آثار ومخلفات هذا الفكر العنصري الشوفيني؟.

برأيي؛ فإن الحل يكمن في أمرين؛

الاول؛ تكريس الانتماء الوطني والروح الوطنية لتحل محل الانتماءات الضيقة التي تخلق النزعة الشوفينية عند المواطن.

ولقد انتبعت المرجعية الدينية العليا الى هذا المرض، ولذلك نراها تؤكّد، بمناسبة ومن دون مناسبة، وتكرّر الحديث عن اهمية الانتباه الى كل معاني الانتماء الوطني، بدءاً بالراية والعلم وليس انتهاءً بالتعامل اليومي، وكل ذلك من اجل تكريس الفكرة وترسيخها في المجتمع.

وسيظلّ العراق على كفّ عفريت وفي مهبّ الريح اذا ظلّ الفكر العنصري والطائفي الشوفيني حاكماً في المجتمع، واذا كان هذا النهج قد بدأ يزحف في العراق بشعارات (القومية والعروبة) فإنه اليوم يغطّي كلّ الانتماءات، وللأسف الشديد، الاثنية والدينية والمذهبية، مردّ فعلٍ، ويضيق اكثر فاكتر ليشمل الانتماءات العشائرية والمناطقية والحزبية وغيرها.

لقد نصب الفكر القومي العروبي العنصري والشوفيني محاكم تفتيش ليحاسب المواطن على انتمائه، حتى وصل به الامر الى فرض سياسة التعريب الإجباري، فكان يفرض على المواطن الكردي مثلاً او التركماني، ان يغيّر اثنيتته عند التسجيل، كما كان يمنع من ويعاقب المواطن في كردستان اذا علّق اسم محله باللغة الكردية مثلاً! ما ولّد ردود فعلٍ عكسية نلمسها اليوم في العراق الجديد!.

يجب ان نتعاون جميعاً من اجل القضاء على هذا الفكر من خلال تكريس الانتماء الوطني بما يلي؛

اولاً؛ بناء الدولة التي تعتمد قيم المواطنة والمدنية والعصرنة، كأسس جديدة.

ثانياً؛ العدل والمساواة على قاعدة (القانون فوق الجميع).

ثالثاً؛ تكريس مبدأ تكافؤ الفرص، على قاعدة {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}.

الثاني؛ اعادة النظر بالمنهج التعليمي والتربوي وأدواته لتطهير المؤسسة التعليمية من الفكر الشوفيني، بدءاً من المراحل التأسيسية وحتى آخر مرحلة أكاديمية، فالتغيير في الفكر والثقافة لا يتحقق بالشعارات ابدأ، وإنما بمنهج تعليمي وبحثي واكاديمي علمي جديد، بعد كنس كلِّ مخلفات المناهج العنصرية وأدواتها من معلمين وتدرسيين لازالوا نجدهم في قاعات التدريس وللأسف الشديد يزرقون في اذهان ابنائنا الفكر العنصري الشوفيني الذي ورثوه من الحقبة السوداء الماضية!.

ان المنهج التعليمي الجديد؛ يجب ان يعتمد الأسس التالية؛

١/ التعددية في الفكر واحترام الراي الاخر.

٢/ الانفتاح ونبذ التزمّت والاستبداد الفكري والثقافي والبحثي.

٣/ الغاء كلِّ الخطوط الحمراء المصطنعة والتي رسمها الفكر الشوفيني لتحديد خيارات الباحث ومحاصرة الفكر والثقافة.

٤/ اعتماد الليبرالية في البحث والتفكير، بشكلها الصحيح والسليم والإيجابي.

٥/ التعايش كنتيجة للتعارف الذي يفرضه التنوع والتعدد في المجتمع.

٦/ تقاسم الحقيقة وعدم احتكارها.

٧/ التربية الوطنية التي قاعدتها (حب الوطن من الإيمان).

٨/ تكريس قيم الحرية والشورى ومفاهيم الديمقراطية وحقوق الانسان والكرامة.

٩/ اعتماد البحث العلمي والاستقصاء والإستبيانات والمسح الميداني والغاء ما يسميه البعض بالظواهر الصوتية والانشاء والشعارات والتسليم بالافكار والنتائج من دون تثبت والاحكام المسبقة. والتي كرّسها لعقود طويلة الفكر العنصري الشوفيني.

١٠/ حرية التعبير والاعلام، ورفض كل انواع الشمولية التي أسس ونظّر لها الفكر العروبي القومي العنصري والشوفيني.

.....

\* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبا المعلوماتية